٢١٨ ـ فَصْلٌ:
فِي الدَّلاَئِلِ الَّتِي يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى نُبُوَّتِهِ ﷺ

قد ذكرنا بعض ما انتهى إلينا من الأخبار الصحيحة والمروية في المعجزات والآيات.

فأما الدلائل التي يستدل بها على نبوة المصطفى ﷺ فهي من خمسة أوجه: ـ

الأول: ما أتى به من الآيات التي يعجز عنها طوق البشر.

الثاني: هو الاستدلال بالظاهر من أمره على الخفي.

الثالث: وجود الأخبار في الكتب المتقدمة شاهدة لتصديقه.

الرابع: إخباره لما يكون في المؤتنف والمستقبل، ثم يكون الأمر كما أخبر لا يقع في أخباره ـ على كثرتها ـ خلف.

الخامس: البرهان العقلي الذي يضطر العقول إلى معرفة صدقه.

فأما الوجه الأول: وهو الآيات التي أتى بها مما يعجز عنها طوق البشر: فهو مثل: شكوى البعير، وكلام الذئب، وحنين الجذع، ومشي الشجر، وتفجر الماء من بين أصابعه، وإخباره الشاة المسمومة عن نفسها، وإطعامه أصحابه وهم كثيرون من طعام يسير، ومسحه ضرع الشاة لابن مسعود وأم معبد حتى صار حافلاً، وما أشبه ذلك من الآيات التي ظهرت في حفره ﷺ الخندق وفي سفره ومسيره وفي عامّة مغازيه.

قوله: «قد ذكرنا»:

يعني: فيما سيأتي في هذا الباب عقب المقدمة.

وأما الوجه الثاني: وهو ما يستدل بالظاهر من أمره على الخفي: فهو ما وجد فيه من الفضائل والمعالي والمكارم والأخلاق الحسنة الشريفة التي لم تجتمع مثلها في واحد قط ثم يكون مع ذلك كذاباً، ألا ترى إلى قول ابن سلام: أتيت المدينة حين قدم النبي ﷺ فوجدت رسول الله ﷺ قائماً يقول: يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وألينوا الكلام وصَلُّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام، فعلمت أن وجهه ليس بوجه كذاب.

وكان أكثم بن صيفي ـ وهو من حكماء العرب، عاش ثلثمائة وستين سنة، ولم يكن أحد من العرب يفضل عليه في الحكمة ـ، لمَّا سمع برسول الله ﷺ بعث إليه ابنه وكتب إليه كتاباً، فأجابه رسول الله ﷺ عن كتابه، فلما ورد عليه ابنه بالكتاب قال لابنه: ما رأيت؟ قال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن لئامها، يدعو إلى أن يُعبد الله وحده لا شريك له، ويأمر بخلع الأوثان، فقال: قد علم ذو الرأي والعقل أن الفضل فيما يدعو إليه، فكونوا في أمره أولاً، ولا تكونوا آخراً، واتبعوه تشرفوا، وأتوه طائعين من قبل أن تأتوه كارهين، فإني والله أرى أمراً ليس بالهين، لا يترك مصعداً إلَّا صعده، ولا مضرباً إلَّا ضربه، ولينفرن بالمقيم، إن الذي يدعو إليه لو لم يكن ديناً لكان في العقل حسناً، وإني والله أرى أمراً لا يتعبه ذليل إلَّا عز، ولا يخالفه عزيز إلَّا ذل، اتبعوه تزدادوا مع عزكم عزاً.

قوله: «ألا ترى إلى قول ابن سلام»:
خرجناه في باب صفة أخلاقه ﷺ، وفي باب مقدمه ﷺ المدينة.

قوله: «فأجابه رسول الله ﷺ»:
تقدم ذلك في أول الكتاب.

أما الوجه الثالث من آياته: فالأخبار في الكتب المتقدمة قبل مبعثه شاهدة لتصديقه وناطقة بنعوته، ومبينة عن صفاته بما وجدت حقيقة ذلك كله فيه، وتلك الأخبار ضربان:

أحدهما: ما وجد في الكتب المنْزلة من السماء مثل التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من كتب شعيا ودانيال.

الضرب الثاني: ما وجد من قبل الكهان والمنامات، وما روي من حديث سطيح وشق وما أشبه ذلك.

وأما الوجه الرابع: فإخباره عن الحوادث والكوائن التي تكون بعده: مثل قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ الآية، ومثل قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ الآية، ومثل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآية، ومثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ الآية، ومثل قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ الآية، ومثل قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ الآية، وما أشبه ذلك من الآيات.

ومن هذا الضرب أيضاً: دعواته ﷺ التي لم تخلف قط، كقوله ﷺ في دعائه لأنس بن مالك: اللَّهُمَّ أكثر ماله وولده، وكقوله للعباس بن عبد المطلب: لا يفضض الله فاك، وكذلك في النابغة الجعدي، فكانت أسنانه تزف زفيفاً على كبر سنه، ومات ولم ينفض له سن، ودعائه ﷺ على قريش بالقحط، وعلى كسرى أن يُمزّق ملكه، وعلى عتبة بن أبي لهب وأبي جهل، وما أشبه ذلك.

والوجه الخامس: البرهان العقلي ـ وهو القرآن ـ : الذي تحدى به العرب مرة بعد أخرى، وتارة بعد أولى إلى يأتوا بسورة مثله، وفيهم الشعراء والخطباء والبلغاء، ولم يتركهم على ذلك بل توعدهم بأشد الوعيد، ووبخهم أغلظ التوبيخ، إن لم يأتوا بسورة مثله أن يدعوا شهداءهم من دون الله إن كانوا صادقين، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ شرطاً، ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ خبراً حتماً، ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، يعني: فإن لم تفعلوا ولن تقدروا عليه وأصررتم على ما أنتم عليه من التكذيب فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة.

وقال عزَّ وجلّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

وكيف يجوز أن يكونوا ـ مع ما أوتوا من البسطة في اللسان والقدرة على البيان والفصاحة والجزالة والحمية والأنفة ـ قد جاءهم واحد من جملة عددهم بدين يخالف دينهم فسفّه عقولهم وضلل أحلامهم وسب آلهتهم وشتت جموعهم، وجاءهم بكلام منظوم يبين بذلك الكلام على صدقه وأنه دليله على نبوته، وأنهم لا يقدرون على أن يأتوا بسورة مثله!! فقرعهم بذلك في المواقف والرد عليهم مقالة في المواطن، وهم قادرون على أن يكذبوه في انتحاله، ويكفون أنفسهم أمره بمعارضته، مختارين بذلك بذل النفوس والأموال، والعزيز من الأهل والأولاد على ما هو أخف وأيسر من مقابلته بكلام يسير يلوح منه كذبه، ويظهر به افتعاله وإفكه، فدل ما قلنا: أن تركهم المعارضة إنما كان لظهور العجز والانقطاع، والكلام في إعجاز القرآن يطول.

* * *